

تفسير البغوي

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ^ط قَالَ هَذَا رَبِّي ^ط فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا) الآية ، قال أهل التفسير : ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان ، وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته ، وكان له كهان ومنجمون ، فقالوا له : إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ، يقال : إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام . وقال السدي : رأى نمرود في منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ، ففزع من ذلك فزعا شديدا ، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن ذلك ، فقالوا : هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة ، فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه ، قالوا : فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة ، وأمر بعزل الرجال عن النساء ، وجعل على كل عشرة رجال رجلا فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها ، لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض ، فإذا طهرت حال بينهما ، فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها ، فحملت

بإبراهيم عليه السلام .وقال محمد بن إسحاق : بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريّة ،
فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم عليه السلام ، فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت
جارية حديثة السن ، لم يعرف الحبل في بطنها .وقال السدي : خرج نمرود بالرجال إلى
معسكر ونحاهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود أن يكون ، فمكث بذلك ما شاء الله
ثم بدت له حاجة إلى المدينة ، فلم يأت من عليها أحدا من قومه إلا آزر ، فبعث إليه ودعاه
وقال له : إن لي حاجة أحببت أن أوصيك بها ولا أبعثك إلا لثقتي بك ، فأقسمت عليك أن
لا تدنو من أهلك ، فقال آزر : أنا أشح على ديني من ذلك ، فأوصاه بحاجته ، فدخل
المدينة وقضى حاجته ، ثم قال : لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما نظر إلى أم
إبراهيم عليه السلام لم يتمالك حتى واقعها ، فحملت بإبراهيم عليه السلام .وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود : إن الغلام الذي أخبرناك به
قد حملته أمه الليلة ، فأمر نمرود بذبح الغلمان ، فلما دنت ولادة أم إبراهيم عليه السلام
وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها ، فوضعت في نهر يابس
ثم لفته في خرقة ووضعت في حلفاء ، فرجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت ، وأن الولد

في موضع كذا وكذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربا عند نهر ، فواراه فيه وسد عليه بابه بصخرة مخافة السباع ، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه . وقال محمد بن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ، ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حيا يمص إبهامه . قال أبو روق : وقالت أم إبراهيم ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه ، فوجدته يمص من أصبع ماء ، ومن أصبع لبنا ، ومن أصبع عسلا ومن أصبع تمرا ، ومن أصبع سمنا . وقال محمد بن إسحاق : كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل ؟ فقالت : ولدت غلاما فمات ، فصدقها فسكت عنها ، وكان اليوم على إبراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهرا حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض ، وقال : إن الذي خلقتني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي ما لي إله غيره ، ثم نظر إلى السماء فرأى كوكبا فقال : هذا ربي ، ثم أتبعه بصره لينظر إليه حتى غاب ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين ، ثم رأى القمر بازغا قال

هذا ربي وأتبعه ببصره حتى غاب ، ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره ، ثم رجع إلى أبيه
آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك ،
فأخبره أنه ابنه وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه ، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فسر آزر
بذلك وفرح فرحا شديدا .وقيل : إنه كان في السرب سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة
سنة ، وقيل : سبع عشرة سنة ، قالوا : فلما شب إبراهيم عليه السلام ، وهو في السرب قال
لأمه : من ربي؟ قالت : أنا ، قال : فمن ربك؟ قالت : أبوك ، قال : فمن رب أبي؟ قالت :
نمرود ، قال : فمن ربه؟ قالت له : اسكت فسكت ، ثم رجعت إلى زوجها ، فقالت :
أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك ، ثم أخبرته بما قال ،
فأتاه أبوه آزر ، فقال له إبراهيم عليه السلام : يا أبتاه من ربي؟ قال : أمك ، قال : ومن رب
أمي؟ قال : أنا قال : ومن ربك؟ قال : نمرود قال : فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمه وقال له
: اسكت فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكبا ،
قال : هذا ربي .ويقال : إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين
غابت الشمس ، فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم ، فسأل أباه ما هذه؟ فقال : إبل

وخيل وغنم ، فقال : ما لهذه بد من أن يكون لها رب وخالق ، ثم نظر فإذا المشتري قد
طلع ، ويقال : الزهرة ، وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فيها ، فرأى
الكوكب قبل القمر ، فذلك قوله عز وجل : (فلما جن عليه الليل) أي : دخل ، يقال :
جن الليل وأجن الليل ، وجنه الليل ، وأجن عليه الليل يجن جنونا وجنانا إذا أظلم وغطى
كل شيء ، وجنون الليل سواده ، (رأى كوكبا) قرأ أبو عمرو (رأى) بفتح الراء
وكسر الألف ، ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ، فإن اتصل بكاف أو هاء
فتحهما ابن عامر ، وإن لقيها ساكن كسر الراء وفتح الهمزة حمزة وأبو بكر ، وفتحهما
الآخرون . (قال هذا ربي) واختلفوا في قوله ذلك : فأجراه بعضهم على الظاهر ، وقالوا :
كان إبراهيم عليه السلام مسترشدا طالبا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى وآتاه رشده فلم
يضره ذلك في حال الاستدلال ، وأيضا كان ذلك في حال طفولته قبل قيام الحجة عليه ،
فلم يكن كفرا . وأنكر الآخرون هذا القول ، وقالوا : لا يجوز أن يكون الله رسول يأتي عليه
وقت من الأوقات إلا وهو الله موحد وبه عارف ، ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم
هذا على من عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأخبر عنه فقال : " إذ جاء ربه بقلب

سليم " (الصافات ، 84) وقال : " وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض " ،
أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبا قال : هذا ربي معتقدا؟ فهذا ما لا يكون
أبدا .ثم قالوا : فيه أربعة أوجه من التأويل :أحدها : أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج
القوم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظموه ، وكانوا يعظمون النجوم
ويعبدونها ، ويرون أن الأمور كلها إليها فأراهم أنه معظم ما عظموه وملتمس الهدى من
حيث ما التمسوه ، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدعون ،
ومثل هذا مثل الحوارى الذى ورد على قوم يعبدون الصنم ، فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى
صدروا فى كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدو فشاوروه فى أمره ، فقال : الرأى
أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما قد أظننا ، فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبين لهم
أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوا الله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون ،
فأسلموا .والوجه الثانى من التأويل : أنه قاله على وجه الاستفهام تقديره : أهذا ربي؟
كقوله تعالى : (أفإن مت فهم الخالدون) (الأنبياء ، 34) ؟ أي : أفهم الخالدون؟
وذكره على وجه التوبيخ منكرا لفعالهم ، يعنى : ومثل هذا يكون ربا ؟ أي : ليس هذا ربي

والوجه الثالث : أنه على وجه الاحتجاج عليهم ، يقول : هذا ربي بزعمكم؟ فلما غاب قال

: لو كان إلهها لما غاب ، كما قال : [ذق إنك أنت العزيز الكريم (الدخان ، 49) ، أي

: عند نفسك وبزعمك ، وكما أخبر عن موسى أنه قال : (وانظر إلى إلهك الذي ظلت

عليه عاكفا لنحرقته) (طه 97) يريد إلهك بزعمك . والوجه الرابع : فيه إضمار وتقديره

يقولون هذا ربي ، كقوله (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) ،

(البقرة ، 127) أي : يقولون ربنا تقبل منا . (فلما أفل قال لا أحب الآفلين) وما لا

يدوم .